من صور الهجرة النبويَّة في الشعر العربي المعاصر

أ.د. طه محسن

Images from the prophef`s Al-Hijra in Modern Arabic poetry

Prof. phd. Taha Muhsin

The research talks about images from modern Arabic poetry concerning the prophef`s Hijra. He choses the most important ones as they have benefits in making Muslims stick to truth as the poet`s write in their poems for Islam.

A partir des images de la migration prophétique dans la poésie arabe contemporaine

P. D. Taha Mohsen…

Cette recherche traite les images de la poésie arabe contemporaine en ce qui concerne la noble migration prophétique, et on en a choisi à présenter les poèmes les plus efficaces du profit à faire les musulmans plus fermes sur la vérité de la prédication …

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

أغنَى الشعراء من أهل الإيمان المكتبة الإسلامية بدواوينَ من الشعر الأصيل في ميدان الدعوة إلى الله، ينافحون عن الدين، ويوقظون العقول، وينبهون على ضرورة الثبات على الحق حتى ينتصر.

وقد وجد هؤلاء الهجرة الشريفة أخلد ملاحم التأريخ؛ لأنها تروي أعظم احداثه. على أنها ملحمة لم يلفقها الخيال ، ولم يبتكر لها الأبطال، ولم يخترع لها الحوادث، ولم يبتدع لها النتائج.

أمّا موضوعها فالصراع بين المسلمين والكافرين.

وأمّا زمانها فهو صدر القرن السابع من الميلاد.

وأمّا مكانها فمكة ثم يثرب وما بينهما.

وأمّا أشخاصها فقبائل قريش بأحلافها من جهة ، ونفرٌ قليل من المسلمين من جهة أُخرى.

لقد استلهم الشعراء حقائق الهجرة، ثم راحوا ينظمون أناشيدها قصيدًا ينبض بصدق الشعور، ونبل العاطفة، مصورين المشاهد والمواقف، والأحداث، والأماكن، والشخوص، وماسخَّره الله من خلقه للمنازلة، ومجسمين معاني التضحية والفداء والبطولة، ومستلهمين من ذلك الدروس والعبر.

يقع شعر الهجرة ضمن مجموعتين:

الأُولى: قصائد نظمها الشعراء في أغراض إسلامية عامة يأتي موضوع الهجرة فيها عَرَضاً، ويأخذ في القصيدة حيِّزًا قليلا، وهذا ما نجده مثلًا في قصيدة ((نهج البردة)) لأحمد شوقي[١]، و((قصة البعث)) لمحمود غنيم[٢].

والثانية: قَصْرُ الشاعر قصيدته على شخصية واحدة من شخصياتها، أو موقف خاصٍّ أو مشهد من مشاهدها يستثيره فيدير حوله التعبير، كما في قصيدة ((سراقة

(١) الشوقيات ١٨٢/١ (بيروت ١٩٨٧م).

(٢) مجلة الوعي الاسلامي، الكويت، العدد١ سنة ١٩٦٥ ص ٢٠.

بن مالك)) لمحمد الحسناوي[١]، و ((حمامة الغار)) لأحمد أبو المجد[٢]، و((في غار ثور)) لأحمد مخيمر[٣] .

ولما كان من غير السَّهل في مقال محدود الإتيانُ على دراسة شعر الهجرة عَرْضًا وتحليلًا بموضوعاته كلِّها آثرت اختيار أبرز عناصرها، وهو (الشَّخصية الإنسانية) فرداً أو جماعة. وهي أيضاً لاتنفك عن العناصر الأُخرى لملابستها إياها، واتحادها معها.

بدأ ركب الهجرة انطلاقه من دار النبوة بعدما اجتمعت كلمة الملأ من قريش، حين أغواهم الشيطان، على أن يختاروا من كلِّ قبيلة شابًا جليدًا، يُعطى سيفًا صارمًا ليضربوا النبي ﷺ ضربة رجل واحد. فصدر الأمر الالهي: (لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه). وصدر الأمر النبوي لعلي بن أبي طالب ﷺ: (نم على فراشي، وتَسَجَّ ببُردي هذا الحضرميِّ الأخضر) [٤].

ثم أخذ النبيُّ ﷺ قبضةً من تراب فجعل ينثر عليهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾[٥]. ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب.

الشاعر يوسف زاهر يستحضر بقصيدته (وحي الهجرة) هذا الموقف من قريش، وكيدَ الله بالظالمين، وسخريةَ القدر من جموعهم فيقول[٦]:

أنقذ الله مصطفاه الأمينا ويحكم ياقريشُ ما تصنعونا؟

(١) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ١٣ سنة ١٩٦٦ ص ٣٨

(٢) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ٣٧ سنة ١٩٦٨ ص ٨

(٣) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ٤٩ سنة ١٩٦٩ ص ٦٠.

(٤) السيرة النبوية، لابن هشام ١٢٦/٢ (تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مصر ١٩٣٦م)

(٥) سورة يس ١/٣٦-٩، و السيرة النبوية ١٢٦/٢.

(٦) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ١٣ سنة ١٩٦٦ ص ١٠٠.

قــد مكــرتم بــه ولله مكــرٌ ويــد الله فوق ما تمــكرونـــا
وجمعتــم لــقتله كـــلَّ جمــعٍ أين ولّى ما كنتمُ تجمعونا؟
أين من حاصروا النبي بليل؟ أين فتيان مكــةَ الخــمسُونــا؟
رمية بالتراب أرسلها الها دي أذّلت قوًى وأغشت عيونا

ويبلغ الشاعر محمد بن علي السَّنوسيُّ الدقة في وصف الليلة التي غادر فيها الرسول ﷺ، ووصف مروقِهِ من بين جمعهم الذي وقف يرصد مطلعه برقًا خاطفًا، فأُسقط في أيديهم، وانصرفوا ينفضون التراب كما نفض الله جمعهم، وشتت كيدهم بعد الخطط التي رسموها(١):

ومشت عصبة الجريمة والكيــد إلـــى غـــايــة لها نــكــراءِ
رسموا خطة القضاء على النُّو ر وهبُّوا كالزعزع الهوجاءِ(٢)
والرسول العظيم كالطَّود إيما نًا وكالنجم في السَّنا والسناءِ
يتحــدّى قــوى الضلال بقلب عـــامرٍ بـــاليقيــن والأضواءِ
رصدوا داره كما يُرصد الجا نــي وثاروا عليــه كالغوغاءِ(٣)
وطغى مكرهم فشاهوا وشاهت أوجـــهٌ مزقــت رداء الحياءِ
ونجــا سيــد النبيين والرسْل مــحــاطًــا بــهالـــة بيضاءِ
مرَّ من بينهم مرورَ شعاع البرق بيــن السحابــة النكبــاءِ
ورمــاهم بــحــفنة مــن تراب كللت كـــلَّ هامــة جوفـــاءِ
وانثنى ينفض التراب رجال نــفــض الله كيدهم في الهواءِ

نوّع الشعراء تصوير دار النبوّة ليلة الهجرة وقد أحاط المشركون بها واستمكنوا، في ظنهم، من جوانبها شاهرين سيوفهم، وفي داخلها فتًى غضُّ الإهاب، مدثَّر بالثياب، يرقد على سرير النبِّي ﷺ.

(١) من قصيدة (ليلة الهجرة) مجلة الفيصل: الرياض العدد ١٣٩ سنة ١٩٨٨ ص ٣٧.
(٢) ريح زعزع: قوية تحرك الأشياء
(٣) الغوغاء: المختلطون من الناس. والمراد بها هنا الهمج الرعاء.

إنه عليٌّ بن أبي طالب ﷺ، الذي ضرب أروع الأمثال على الفداء، وقوة الجنان، والثبات في النوازل، وهذا ما قرَّره الشاعر محمد بدر الدين في قصيدته ذات المطلع[١]:

من هداها علمت سرَّ وجودي والطريقَ السويَّ عبر السدودِ

يقـــول:

عـلَّمتنـــي والنـــار تلتهـــم النَّا سَ فداءًا لا يرتضي بالقعودِ
وتـــريـــنـــي الحيـــاةُ فيها عليًا وهو مازال في نضارة عودِ
وإذا جنَّتِ النـــوازلُ والليلُ أَراه مـــلـــفـــلـــفًـــا في البرود
مطمئـــن الجَنـــان يغمره الحـــقّ ضياءًا من الرضاء الحميد
يفـــتـــدي بالحيـــاة خيـــرَ نبـــيٍّ ويبـــيـــع الـــشبـــاب للـــمعـــبـــود
فاهبطي ياجنودُ من ظلل العر ش وذودي عـــــن الفتيِّ المجيد
وامنعي البغي أن يطوف بعبد باع لله روحـــــــه بالـــخـــلـــود

ولأبي بكر الصديق ﷺ وأُسرته دور مشرِّف في ملحمة الهجرة. فانّه لم يكن يعلم بخروج النبيِّ ﷺ حين خرج من مكَّة إلا أبو بكر وآلُه وعليٌّ ﷺ. وكان أبو بكر قد أمر ابنه عبدالله أن يتسمَّع لهما ما يقول الناس فيهما نهارَه ثم يأتيهما إذا أمسى إلى الغار. وكانت أسماء تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما. وحين أرادت قبل أن يرتحلا من الغار أن تعلِّق لهما السُّفرة لم تجد لها عصامًا، فشقت نطاقها باثنين، فقيل لها: ذات النطاقين[٢].

وإذا تجاوزنا الشعر الوافر الذي قيل في أبي بكر نجد أسماء بنته قد استأثرت بتخليد الشعراء وقفتها الشجاعة، وصبرها على الأذى، واقتحامها الصعاب.

الشاعر حسن فتح الباب يرسم صورة حية للفتاة تحمل زاد الصاحبين، شاقَّة رمال الصحراء وشوكَها الذي أدمَى أطرافها الغضَّة ، ومزدريةً كلَّ العناء والتعب

(١) من قصيدة (في عيد الهجرة) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ٢٥ سنة ١٩٦٧ ص ٨٦

(٢) السيرة النبوية ١٢٩/٢ – ١٣١.

فيقول[١]:

هاجر المرسل العظيم بليـــل ليس يرعاه غيرُ ربِّ السماء
يشتري دينـــه بـــأهلٍ وجـــاه تلك عُليا مراتب الأنبيـــاء
وأبو بكر صفوة الصحب طرًّا إنَّه المرتجَى لدى البأساء
يفتديه بنفســـه وبنيـــه وبمـــال لـــــه علـــى السرَّاء

تلك أسماء بنته وهـــي غِرٌّ طفلة لا تُضيع حـــقَّ الوفاء
تزدري بالعَنـــاء ليس تبالـــي شِرَةً منه أو نذيـــرَ بـــــلاء[٢]
خضب الشوك في السُّرى قدميها بجـــراح زكـــيـــــةٍ ودمـــــاء

ويتحدث الشاعر عبدالرحمن البجّاوي عن بطولة أسماء وفدائها ومضائها في الهجير كالطيف، لا تخاف الأرصاد، ولا خيول الطائشين فيقول[٣]:

ومرَّت ثلاث من ليالٍ جليلـــةٌ على القوم تُحصَى كلُّ نأمة طائر[٤]
وتسبح في عرض الفلاة خيـــولهم فترتد حسرَى داميات الحوافـــر
وأسماء لا تخشى رعـــود وعيدهم فتمضي كطيف في أَتون الهواجر[٥]
ويحمل زاد الصاحبين نطاقهـــا وأيَّ طعـــــام زوَّدت لمسافـــــر
فدائيَّة جلَّت عن الوصف غادرت وعيـــد أبـــي جهل ذليـــــل البواتر

وهنا إشارة إلى موقف عزيز من هذه الفدائية سجلته كتب السيرة بفخر، إذ روت أنَّه حين خرج النبي ﷺ أتَى منزلها نفرٌ من قريش فيهم أبو جهل. فوقف على الباب يسألها: أين أبوك يا بنتَ أبي بكر؟ قالت: لا أدري والله أين أبي. فرفع يده

(١) من قصيدة (إنها هجرة إلى الله زُلفَى) مجلة الوعي الاسلامي: العدد ٢٥ سنة ١٩٦٧ ص٧.
(٢) تزدري: تستهين وتحتقر. العناء: التعب. شِرَةً: مضرةً وقطعاً.
(٣) من قصيدة (من وحي الهجرة) مجلة الأُمَّة، قطر: العدد ٤٩ سنة ١٩٨٥ ص٧٩.
(٤) النأمة: الصوت الخفيُّ الضعيف.
(٥) الأَتون: أُخدود الجيار والجصاص.

فلطم خدّها لطمة طرح منها قُرطها[١]. ومع ذلك احتملت هذه المؤمنة، واستمرت على إتمام مسيرها الصعب في حركة الهجرة بخطوات شجاعة، تحمل الزاد إلى صاحبي الغار.

الشاعر أحمد محرم يعجب من موقفها وينقل لنا هذا الحوار[٢]:

ويحَ أسماءَ إذ يجيء أبو جهــل على خدرها المصون مغيرا
صاح: أسماءُ أين غاب أبو بكــر؟ أجيبي فقد سألنـــا الخبيرا
قالت: العلم عنده ما عهدنا أُجُمَ الأُسد تستــثــيــر الخــدورا
فرماها بلطمة تعرض الأجيال عن ذكرها صوادفَ صورا[٣]
قذفت قُرطها بعيدًا ورضَّت من وجوه النبي وجهًا نضيرا

ويتابع ركب الهجرة بعد الثلاث التي انقضت بغار (ثور) المسير في البيداء، تظلِّله رحمة ربِّ السماء. وتلوح للسائرين، وهم مرملون مُسنتون، خيمةٌ، وإذا امرأةٌ قابعة مع عنز لها هزيلة ضاوية لا تدرُّ لبنًا، وتأبَى مشيئة الله إلا أن تكتب في سجل الخالدين. إنها أُمُّ معبد، عاتكة بنت خالد، أجرى الله في خيمتها معجزةً أُخرى حين درَّت تلك الشاة بين يدي الرسول الكريمتين لبنًا ثجًّا فيسقيها، ويسقيها، ويسقي أصحابه حتى رَوَوا، ثُم يترك من اللبن ما يُدخل الغرابة في نفس زوجها العائد من الرعي[٤]:

لم يترك الشاعر محمد أحمد الصدِّيق هذا الموقف حتى سجله شعرًا فقال في بائيته (في موكب الهجرة)[٥]

إنَّ الرسول لكلِّ خير قــدوة والخير مثل رسوله لم يصحبِ
سل أُمَّ معبد مالشاتــك أخصبت وهي التي من قبله لم تَخصِبِ

(١) السيرة النبوية ١٣١/٢ و ١٣٢.
(٢) ديوان مجد الاسلام ١٠/٢ (عن مجلة الوعي الاسلامي العدد ٣٧ سنة ١٩٦٨ ص ٧٣).
(٣) صوادف: معرضات منصرفات
(٤) السيرة النبوية ١٣٢/٢ (مع الهامش).
(٥)ديوان نداء الحق ص ١٩٤ – ١٩٥ (الدوحة ١٣٩٧ هـ)

هل تسمعين ثغاءها ودعاءها هاتي إناءك أُمَّ معبد واحلبي
الضَّرع فاض بلمسة ميمونة يـــا أُمَّ معبد صدقي لا تعجبي
هي معجزات جمَّةٌ عن مثلها قلـــم الخلود بسفرها لم يكتب
من فيضها القدسيِّ جيل لم تلد في طهره رحِم العلا أو تُنجبِ

ويلوح خلف الركب، وهو في سيره الحثيث، سحابة من النقع، يبدو من خلالها مبعوث قريش وفاتكها المجرَّب سُراقة بن مالك، الحريص على البطش بمحمد ﷺ، والنيل بالجائزة المرصودة، مئةٍ من الابل، وما إن يقترب من بُغيته حتى تتعثر به الفرس، وتسيخَ قوائمها في الرمال، فيخيِّبَ الله فأْله، ويُبطلَ رجاءه، ويوقن ألّا مناص إلا العودة، ولكنَّه يطمع ألّا يرجع بالخيبة كلِّها، فينادي: (أنظِروني أُكلمْكم. فوالله لا أُريبكم، ولايأتيكم مني شيء تكرهونه)، فيكون بعد ذلك من لدن الرسول محمد ﷺ عهد مكتوب له[١].

حركة سراقة المضطربة يسجلها الشاعر محمد أحمد الصديق وهو يناديه بالعودة[٢]:

وتوهَّجت في البيد أشرعة الضحى والريح تَسفي الرمل حـــول الموكبِ
وتلوح في الأُفق البعيد سحابةٌ ثـــار الغبارُ بشـــرِّهـــــا المتعقبِ
عُد يا سُراقةُ عُد فجدُّك عـــاثر كجوادك المتـــعـــثـــر المتـــنـــكِّبِ
عـــد ياسراقـــةُ لا تجازف إنَّه سرُّ النبوة ظاهرٌ لـــــم يُغلبِ
لِمَ تنقمون وقد أتاكم ديـــنُـــه يُحيي النفـــوس بشِرعةِ المستعذبِ
وَحْيٌ تنزل هـــــاديًا ومهيمنًـــا كالشمس يسطع في الفضاءالأرحب
تمحو الظلامَ وليس يُطفئ نورَها نفخُ الزعازعِ أو جنونُ الغيهبِ[٣]
وغدًا ستغنم تاج كسرى فانتظر يوماً تنال بـــه جنـــاح الموكب

(١)السيرة النبوية ، ابن هشام ١٣٤/٢.
(٢) ديوان نداءالحقِّ ص ١٩٣ و ١٩٤.
(٣) الزعازع: جمع زعزع: الريح القوية. الغيهب: الظلمة ، والشديد السواد من الليل.

وهنا إشارة إلى ما وعد به النبيُّ ﷺ سراقةَ من أنَّه سينال تاج كسرى وسواره.

وحين تتحقق النبوءة، وتتحطم تيجان كسرى تحت سنابك خيل المسلمين تصل المدينةَ ذخائرُهُ، فينادي المنادي: أين سراقة بن مالك؟ هذا تاج كسرى ومنطقته هلمَّ تسلمها وفاءًا بعهد النبي ﷺ.

الشاعر محمد الحسناوي يستذكر القصَّة ويضمنها قصيدته (سراقة بن مالك) التي اختَصَّه بها، ذاكرًا موقعه من الهجرة قبل إسلامه وبعدُ. وعلى لسانه يحدِّثنا عن أمر قريش، ورصْدها الجوائز، وخوفها من وصول النبي ﷺ إلى المدينة، ويصف شجاعته وبأسه والصعاب التي واجهها. ثم يروي ما سمعه من خطاب ووعد صادق.

ويأخذنا الشاعر في نهاية المطاف إلى المدينة حيث تقسم المغانم أيام الخليفة الفاروق ﷺ فيقول[١]:

أين عيناك يا سراقةُ لـمّـــا ... فتح الله مقفلات الشعــوبِ
دكَّتِ (الله أكبر) الظلم دكّــاً ... وتمشّى الضعيف غير هيوبِ
لو ترى يا ابن مالكٍ عرش كسرى ... وحُــلاه نــهــبًا وما من نَهوب
لو ترى الفاتحين عبر الصحاري ... ينثرون الغِنى وعبر السهوب
حانت القــسمة العــتــيدة لكن ... أين أمسَى أخو الطِّماح الطلوب
أين أضحَى سراقــةُ يا صحابي ... فله في السهام أوفَى نصيب
تاج كسرى لـــــه ومــنطقة ... الملك وفاءًا بعهد طــه الحبيب
ألبــستــه النبوةُ المــلــكَ تاجًا ... ونطاقًــا فيــالــه مــن كسوب

وحين يوافي الركبُ المكرَّم مشارف المدينة المنورة تتجمع حوله مواكب الاستقبال من الأنصار آتية من شعابها، ومنحدرة من مرتفعاتها، وقد تهللت الأوجه بالبشر، وعمت الفرحة، واصطف المحيُّون يظللون بسيوفهم الرسول الكريم وصاحبه، فكانت المدينة في عرس مشهود كما يقول محمد هارون الحلو[٢]

هذي مشارفُ يثربَ ائتلقت وأشرق ... بــيــنــها للصــاحبَيــن رحــابُ

(١) مجلة الوعي الإسلامي ص ٣٨ ، العدد ١٣ سنة ١٩٦٦.

(٢) من قصيدة (في ذكرى هجرة المختار) مجلة الوعي الإسلامي العدد (٢٥).

وغدا النبيُّ ووجهُــه مــتهلِّل جــذْلٌ فغمرة ليله تنجــابُ
ومواكبُ البشرَى تحفُّ ركابه وبها قلوبٌ بالنشيد طــرابُ
وترى الكتائب والجحافلَ بالسيو فِ تشابكت منها عليه قبــابُ
ويرفُّ حول المصطفى نَسَمٌ وظلٌّ فيه مــن مِسك الرُّبَى أطياب
عُرسٌ به غدت المدينة مشهدًا عجبًــا تهيم بسحره الألبــابُ

وهناك في جانب آخر تكمل الفرحة بلقاء الرسول ﷺ حين خرجت فتيات كالزَّهرات من بني النجاريحيين فاتح القلوب والعقول، نبيَّ الرحمة بالنشيد والترديد، ويقلن فيما يقلن[١]:

نحن جوارٍ من بني النجار يا حبذا محمدٌ من جار

إنه مشهد أثار شاعرية أحمد محرَّم فقال[٢]:

ما للديار تــهــزُّهــــا نشواتُها أهي الأناشيد الحسانُ ترتَّلُ
رقت نضارتُها وطــاب أريــجهــا وتــرددت أنفاسُهــــا تتسلسلُ
فكأنما في كلِّ مغنىً روضةٌ وكأنما في كلِّ وادٍ بــلــبــل
هنَّ العَذارى المؤمنات أَقَمنه عيداً تحيِّيه الملائك من علُ
في موكب لله أشرَق نــــورُه فيه وقــــــام جلالُــــه يتمثل
جمع النــبــيــيــن الكرامَ فآخذ بــيــد الإمــــامِ وعائذ يتوسلُ
يمشي به الروح الأمينُ مسلماً وجــبــينه، نعم النبيُّ، مُقَبَّل
إيهٍ بَنــــي النجار إنّ محمداً لأشدُّ حبّاً للتي هي أجمل

وأحسب في هذا القدر من النصوص مايلقي الضوء على شعر الهجرة ومواقف الشعراء المعاصرين من شخصياتها. ومن خلال ذلك عرف القارئ أنَّ ما من نصٍّ إلّا وللنبيِّ ﷺ فيه ذكر أو إليه إشارة.

(١) البداية والنهاية ، ابن كثير ٢٠٠/٣ (دار ابن كثير، بيروت).
(٢) ديوان مجد الإسلام ١٧/٢ و ١٨ (عن مجلة الوعي الاسلامي، العدد ٣٧ ص ٧٤).

ولاغَروَ، فهو صاحب الهجرة، وحامل لوائها. وكان لشجاعته وصبره، وحسن تدبيره الأثر في نجاحها الذي ارتبطت عوامله بشخصيته، وفكره الذي لاينطق عن الهوى.

وبصحبته اكتسب أبو بكر ﷺ شرفًا عظيمًا، وذكرًا حميدًا، وفي شرف هذه الصحبة نزل قوله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

ردّد شعراء الهجرة ذكرهما كثيرًا، وتابعوا مسيرتهما، وتفننوا في تصوير مراحلها من مكة إلى المدينة، واختصوهما بقصائد منفصلة سنشير إلى بعضها في المبحث الآتي، وهو:

الملامح الفنية لقصيدة الهجرة

الأفكار والمعاني:

الهجرة حادث جليل في تأريخ الإسلام. تعود بجلالها على الكون كلَّ عام، فيحتفي بها المسلمون، حتى صارت أمرًا حيًّا في نفوسهم، ورمزًا لأيِّ نصرٍ إلهيٍّ يمكن أن يتحقَّق ويتجدَّد في كلِّ زمن بتجدُّد صدق المؤمن وبتجدد الإيمان والعطاء.

ولذلك حرص الشعراء على استذكار حوادثها، وتمجيد أبطالها، يحفزهم إلى ذلك إيمانهم بالله، غير متأثرين بدوافع اقتصادية، ولا متكسبين من ذي جاه أو سلطان. فقدَّموا نماذج من الشعر الإسلامي، توافرت فيه عناصر التجربة الشعرية الناجحة في قوة الايحاء، وصدق التعبير. وارتفع أكثره إلى مصاف الشعر الجيد، ممثلًا تجارب موفقة تنبع من ضمائر الشعراء.

وقد انطوت هذه القصائد على مضامين سامية، ومفاهيم رفيعة، نابعة من تعاليم الإسلام، فاشتملت على ألوان من الصور الدينية، والموضوعات المتعلقة بالعقيدة،

(١) سورة التوبة ٩ / ٤٠.

والجهاد، ومقارعة الظلم، واستنهاض الهمم، وتحرير الانسان والديار، وآستذكار البطولات المجيدة وهي تبدِّد ظلام الجاهلية، وتحطِّم أغلال العبودية، وأصنام الشرك، مع الدعوة إلى الصبر والتضحية، واطِّراح الذُلِّ والجهل، واكتساب العلم والفضل، مقروناً ذلك بالعبر والعظات، من خلال كشف المواقف والأحداث، والتفاؤل باقتراب النصر المبين، غير مبتعدين عن وصف بعض مظاهر الكون، وخوالج النفس الانسانية في يسرها وعسرها، وفرحها وسأمها.

ويبدوا أثر القرأن الكريم واضحًا في شعر الهجرة. كيف لا وقد أنزل الله تعالى فيها آيات بيِّنات كانت هي خاصَّة، وغيرها من الآيات عامَّة مَعينا رفد الشعر بالمعاني والأفكار، وأمدَّ الشعراء بالأساليب والألفاظ عن طريق الاقتباس المباشر أو غير المباشر.

وتأتي في المقدمة آية الغار ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

أنعم الشعراء النظر في هذه الآية، وتفننوا في تصوير ما تحقق في الغار من آيات، وما جرى فيه من حوار بين الرسول محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه.

ولعل قصيدة أحمد مخيمر (في غار ثور) من أحسن ما يمثل هذا الجانب. فهي لوحة للصاحبَينِ يتحاوران في موقع عمليات الهجرة، ويتجلّى خلال التحاور صدق الشعور، وفيض العاطفة الإنسانية التي انبعثت من أبياتها. وزاد من دقة التصوير، وحلاوة التعبير تلون قوافي مقاطع القصيدة الستة التي تبدأ بهذا المطلع[٢]:

في غار ثور وعلى صخوره يضطجعُ الإنسانُ والصدِّيــقْ

مختلفَين في الشعور بالذي يَخْبــؤه الظلام والطريقْ

(١) سورة التوبة ٩ / ٤٠.

(٢) مجلة الوعي الاسلامي: العدد٤٩ سنة ١٩٦٩ ص ٦٠.

كان أبو بكرٍ حزيناً خائفاً بكلِّ شيء حوله يضيقْ
وكان ما يحذر يلقي عِبْئه عليه وهو ناحل رقيقْ
ولم يكن محمدٌ يحمل ما يحمل هذا الصاحبُ الرفيقْ
في قلبه سكينةٌ، في روحه محبةٌ، في قلبه بريقْ
ترن أصداء الوجود كلِّه فيه، ويعلو رجعها العميقُ
وتلتقي الآزال والآباد في أغواره والزمنُ السحيقْ
وتشرق الشموس في ضلوعه فقلبه في ضوئها غريقْ

ولا تفوت الإشارة إلى الرافد الثاني في إمداد الشعراء بالمعاني والأفكار، أعني به (السيرة النبوية) فقد اغترفوا من حوادثها وأخبارها، وكان لنصوصها في مصادر المؤرخين، ولا سيَّما أخبار الهجرة، الأثر الأوفر في القصائد التي تجسمت فيها المعاني.

الشكل والاسلوب:

تسير قصائد الهجرة التي اطلعت عليها في بنائها على وَفْق الأُسلوب القديم للشعر العربي متمثلًا بنظام الشطرين وبوحدة القافية غالبا. على الرغم من أنَّ لفريق من ناظميها قصائد في غير هذا الموضوع سارت على الطريقة التي لا تلتزم ذلك النظام.

ولعلهم فضَّلوا تقديم تلكم المعاني النبيلة ، والأفكار السامية في وعاء هو عندهم أو عند من يتلقَّى شعرهم من أفضل الأوعية.

ولا يَخفَى أنَّ ((العنوان)) للقصيدة الذي خلا من الشعر القديم صار سمة ثابتة في الشعر الحديث، ولم تخرج قصيدة الهجرة عن ذلك. ولكنَّ الملاحظ أنَّه على الرغم من الاختلاف بين القصائد في المضامين والأفكار والمعاني فقد وقع تشابه في عنوانات كثير منها، وتقاربٌ في ألفاظها، من مثل ((في موكب الهجرة)) و ((في عيد الهجرة النبوية)) و ((في عيد الهجرة)) و ((من معاني الهجرة)) و ((من ألحان الهجرة)) و ((من وحي الهجرة)) ثم ((وحي الهجرة)) عنوانا لقصيدة الشاعرين وليد الأعظمي ويوسف زاهر.

إنَّ هذا التقارب جاء نتيجة تجدُّد ذكرى الهجرة واستغلالِ الشعراء مناسبتها للتعبير عما يُستوحَى من أحداثها ومن سجايا شخصياتها معبرين أحيانا عن الوقائع التي تمرُّ بهم. وتحقَّق هذا التعبير بقصائد طويلة اتسعت لتجاربهم، ومكنتهم من الاسترسال في تصوير الحوادث، واستلهام الدروس، والتفنن في ذكر الوقائع. فاتسمت بطول النفس وكثرة الأبيات.

أمّا منهج القصائد من حيث ((الاستهلال)) فلم يكن متشابهًا، إذ يأتي أكثره تبعًا للمضمون من غير التزام بمعنى محدَّد.

فتارةً يلوِّح المطلع بموضوع الهجرة مباشرة ويصرح به، كقول صابرة العزي[١]:

هجرةُ النور من ربوع زكيه لربوع حبيبـــــة قدسيـــَّه

وتارة يذكر لازمًا من لوازمها أو مَعْلَمًا من معالمها، كذكر الغار في قول محمد الهادي اسماعيل[٢]:

قم رتِّل الذكر واختر خير قيثار فتلك ذكرى رسول الله في الغار

وتارة تأتي الإشارة من طرْف خفيٍّ مشوبة بالفخروالاعتزاز ، كقول محمد إبراهيم طيرة[٣]:

قديمٌ ولكن في القلوب جديد ومجدٌ لنا في العالمين تليد

وتارة يأتي المقطع لتقرير حالة منحرفة من حالات الجاهلية قبل البعثة النبوية ، كقول حسن فتح الباب[٤]:

روَّع الأرضَ ماارتوت من دماء وآستُذِّلت من أنفس عصماء

---

(١) من قصيدة (هجرة النور والهدى) مجلة الرسالة الإسلامية: بغداد، العدد ٢١٩ و ٢٢٠ سنة ١٩٨٨ ص ١٢٤.

(٢) من قصيدة (من ألحان الهجرة)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩ سنة ١٩٦٩ ص ٧٨.

(٣) من قصيدة (تحية للهجرة في عامها الجديد)، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٠٥ ، سنة١٩٨١ ص ١٠٦.

(٤) من قصيدة (إنها هجرة إلى الله زلفى) مجلة الوعي الإسلامي العدد ٢٥.

وتارة يكون الافتتاح بالاشارة الى معنىً خاصٍ يقرنه الشاعر بالنداء قصدًا للتشخيص، أو لفتًا لانتباه القارئ، أو إثارة لتشوقه، كقول محمد هارون الحلو يحيي رسول الله ﷺ(١)

هل غير هديك للمؤمِّل باب ياخيرَ من تسمو به الألباب

وقول أحمد محمد الصدِّيق يبشِّر يثرب بانطلاق النور في رحابها (٢):

بشراكِ ، بل بشرى الحياة فرحبي بطلوع شمسك يا منائر يثرب

وقول محمد الحسناوي على لسان سراقة بن مالك الفارس المبهوت (٣):

أيها الخابطون عبرَ الدروبِ أنظِروني أُخبرْكُم بالعجيب

وقول يوسف زاهر يوبخ قريشًا (٤):

أنقذ الله مصطفاه الأمينا ويحكم ياقريش ما تصنعونا

وقول محمد نديم ينادي بني الإنسان(٥):

إن كنت تفخر أيُّها الإنسان فبأُمة قد قادها القرآن

ويخرج الشاعر محمد علي السنوسي عن دائرة استقلال المطلع ووحدته في تمام المعنى ليبدأ قصيدته (ليلة الهجرة) بمطلع يتم معناه بما بعده ، فيقول(٦):

بين إشراقة الهدى من حراء وانطلاق الشعاع نحو قُباءِ
ليلةٌ ما تنفس الصبحُ عن مثل سناها على ثرى الصحراءِ

(١) من قصيدة (في ذكرى هجرة المختار) مجلة الوعي الإسلامي عدد ٢٥ ص ٤٤.
(٢) ديوان نداء الحقّ ص ١٩٠.
(٣) من قصيدة (سراقة بن مالك) مجلة الوعي الإسلامي العدد ١٣.
(٤) من قصيدة (وحي الهجرة): مجلة الوعي الإسلامي عدد ١٣ ص ١٠٠.
(٥) من قصيدة (من معاني الهجرة) مجلة الفيصل، العدد ١٣٩.
(٦) المصدر المتقدم ص ٢٧.

وهكذا نقف على صور متنوعة، وأساليب متباينة من المطالع، وهي في غالبها تجري وفق الموروث الأدبي في الاهتمام بمقدمة القصيدة وحسن ابتدائها. ولم أجد معنًى مما ذكرت متقدمًا على غيره من المعاني في كثرة الاستعمال على الرغم من أنّ مناسبة القصائد واحدة.

أما أبيات الاختتام فإنها اتصلت اتصالا عضويًا بما تقدم عليها، ولم تنفصل عنها في أداء المعنى.

وقد تنوعت معانيها أيضًا تبعًا لتنوع المضامين. وتضمنت في الغالب الاستنهاض، واستلهام العبرة، والفخر بصاحب الهجرة، والتغنِّي بنتائجها، والبشرى باقتراب النصر والفرج، وبلوغ الأمل. وربما يصور لنا الشاعر المدينة وأبناءها يلتقون موكب رسول الله محمد ﷺ والفرحة تغمرهم، والبشرى تسري في قلوبهم. يقول الشاعر أحمد مخيمر مترجمًا لنا نداء رسول الله ﷺ لأبي بكر ﷺ في غار ثور[1]:

يا صاحبي قد آن أن نسير أن نعبـــرَ للمستقبل المنشودْ
الليل ساكنُ الظلام نائم علـــى الروابـــــي وعلى الوهودْ
والباحثون فيه عنّا رجعـــوا باليأس والظلمة والجحود
فاجعل من العزم دليلاً وامـــ ضِ لاتنظر بعين الخائف المطرود
واصبر على ما يصنعون إنهم ضحية العنـــاد والحقود
والصبر زادُ المؤمنين والتقَـــى خلاصهم من عنت القيود
أكاد أن أبصر نخلَ يثربٍ وأهلَها في ظلِّه الممدود
ومُنطِقِي الدفوفِ بالحنين في قلوبهـــم وحامِلـــي البنـــودْ
ياصاحبي هيّا بنا غداً نرى حقيقةَ الإنسان في الوجود

وتجنح الأساليب التي نظم بها الشعراء إلى السُّهولة والبعد عن التعقيد اللفظي، وعن الغموض في التعبير. وهو أمر يتناسب وطبيعة الموضوع وحال المتلقي.

(١) من قصيدة (في غار ثور) مجلة الوعي الإسلامي العدد ٤٩ ص ٦١.

فالهجرة معروفة لدينا في شخوصها ومواضعها وزمانها. ونحن لا نجهل أكثر ما يرد في قصائدها من رموز وصور تتصل بالايمان والعقيدة وغيرهما من المعاني المتقدمة.

ومهما اختلف الشعراء في الوصف، وتباينوا في المعالجة، وتَفَنَّنوا في تشقيق المعاني وتحليلها، واستنباط الدقيق منها لم يخرجوا عن التعبير باللفظ المأنوس، والعبارة السهلة.

وإذا اضفنا إلى ذلك بعدهم عن الزخرفة اللفظية والتزويق أدركنا أنّ القارئين لاتكون لهم الحاجة إلى مراجعة المعجمات للتعرف على معاني الألفاظ، ولا تضِلُّ في هذه القصائد أوهامهم.

ومع هذا لم يبتعد الشعر، إذا استثنينا بضعة قصائد[١] عن جودة السبك، ومتانة الأُسلوب، وقوة اللغة في جانب، وعن رقة اللفظ، ولين العبارة في جانب آخر. ولذلك تراوحت الأساليب من الجزالة والقوة إلى الرِّقة والسَّلاسة.

ومما يمثل الجانب الأول قصيدتان للشاعر محمد أحمد الصدِّيق، تقدمت في الدراسة الشعرية أبيات من إحداهما، وهي (في موكب الهجرة)، وتبدو في الأُخرى (علم بهجرتك الدنيا) القوة والمتانة، ويتسم أُسلوبها بالجزالة والرصانة، وقد اقتضت دائرة الموضوع الذي استوحاه من الهجرة أن يكون أُسلوبها على هذا النحو.

الشّاعر يرى العالم قد غرق في طوفان الظلم والاستبداد، وبات القوم يعانون المحن والفوادح. فهو يهيب بهم أن ينهضوا وينفضوا عنهم غبار الذلِّ ويحرِّروا الديار، وإليك أولها[٢]:

أهبت بالشعر والأحداثُ تضطربُ والأرض بالفتن النكراء تلتهبُ
والخطب أعظمُ من ترجيع قافية والجُــرح أبلــغ مما يبلغ الأدبُ

(١) مما خرج عن حدِّ الجودة من القصائد ((وحي الهجرة)) لوليد الأعظمي (ديوان وليد الأعظمي ص١٣٧)، سنة ٢٠٠٤ و(في عيد الهجرة النبويِّة) لصابرة العزِّي، (ديوان نفحات الإيمان ص١١)، و(من معاني الهجرة) لمحمد نديم حسن (مجلة الفيصل العدد ١٣٩) و(من ألحان الهجرة) لمحمد الهادي إسماعيل (مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٩).

(٢) مجلة (الأُمة) قطر، العدد ١ سنة ١٩٨٠ ص ١٦.

لولا شموعٌ من الآمال نوقدهـــا كما تضيء خلال الظلمة الشهب
لولا نداءٌ من الإيمان يهمزنا عبر الزمان لما اهتزت لنا قضب

والقصيدة التي تزيد على أربعين بيتا تجري على هذا المثال من قوة السبك والمتانة لغةً وأُسلوبًا. استمع إليه يربط بين الماضي والحاضر:

يا صاحبَ الهجرة الغراء ما لبثت خُطا سراقةَ خلف الركب تختضب
لو كان يعلم ما يُخفي له غده لم يُغره باللحـــاق المال والذهبُ
علِّمْ بهجرتك الدنيـــا فقد غرقت بالموبقاتِ فَسادَ البغـــــيُ والكذبُ
علِّم بهجرتك الدُّنيا فـــلـــو هُديتْ إليك لـــــم تُعبدِ الأوثان والنصُب
ولم تقم للهـــــوى المذمومِ قائمـــة ولا تمزقت الأرحـــــامُ والعُصَب

ثم ينتهزها فرصة ليستفز الأُمة لتعود إلى الصواب والعمل الجادِّ، وإلى النهوض بواجب الجهاد، فها هي ذِهِ (القدس) بلدة الشاعر التي فارقها ظلما تجأر بالشكوى فهل من مجيب؟!:

أيترك الغاصب الملعون منتفخاً ونحن في لجج الأحقاد نحـــترب؟!
القدس تجأر بالشكوى فهل نهضوا لغوْثها أم تُرى للفتنة الغَضب؟
لو صُبَّ ما بيننا من نار نقمتنا على العدوِّ لأحيا مجدَنا الغلبُ

أما النمط الثاني في لغة الشعر المتمثل في رقة الأُسلوب وليونة العبارة وسلاستها فنضرب له مثلًا قصيدة (حمامة الغار) للشاعر أحمد أبو المجد التي يبدؤها بهذا الاستفهام التعجيبي مع حلاوة الجرس، وطلاوة اللفظ، يزيد من خفته قِصَر البحر المجزوء[١]:

أرأيت ما فعلتْ حمامه حملت إلى النورِ السلامه
في هجـــرةٍ مـــيمونةٍ ردَّت إلى البَشَر الكرامـــه
حـــمـــت الـــنبيَّ وصاحباً ربُّ الورى أعلى مقامـــه
والشـــرك عبَّـــأ حقـــده في موقف أحمى ضُرامه

(١) مجلة الوعي الإسلامي: العدد ٣٧ سنة ١٩٦٨ ص ٧٨.

رحلا وقد ذاقا بمكةَ ما تضيقُ به الاقامــه
قامت على الدين الجديد على النبيِّ لها قيامه

وفي القصائد استخدام ظاهر للأساليب الإنشائية. كالأمر والنهي، والاستفهام، والنداء.

وهذا الأخير هو الأيسر لدى الشعراء. وقد خرجوا به إلى معانٍ مجازية متنوعة، وخلقوا بوساطته صورًا قربت البعيد، واستحضرت الغائب، فحققوا عنصر التشخيص.

وتأتي مناجاة الشعراء للنبي ﷺ هي الأكثر، فقد أشاعوا، وهم ينادونه بألقابه السامية، حالًا من الأُنس، وجوًّا من الراحة، وهبهم شحنة دافعة للصحوة والصَّمْد، في وقت تسربل الناس فيه بالضيق والحزن، كقول محمد أحمد الصدِّيق[١]:

يا قائد الصفوةِ الأطهار إذ خرجوا مثل النجوم على الدنيا وما غربوا
قادوا على نهجك الأجيالَ صاعدة وليس دون منارات الهدَى حُجُبُ

وتقع (الهجرة) بعد هذه المرتبة في نداء الشعراء، فهي بيت القصيد، ولصداها الأثرُ العميق في قلوبهم، واقترن لفظها في النداء غالبا بصاحبها الكريم أو بصفة من صفاته، كقول صابرة العزي[٢]:

يا هجرةَ المختار من دار الصَّفا والبيت يـــا فلقًا من الإصبــاح
منها استمدَّ الكونُ أنوار الهدى وسما الأريج بنشرها الفواح

وللشخصيات والمعالم الأُخرى المتعلقة بالهجرة موقع في أُسلوب النداء عند الشعراء، فضلاً عن أجناس غيرها خارجية تحقِّق عن طريق ندائها تجديد نشاط القارئ، وإثارة آنتباهه، وتحريك شعوره.

(١) مجلة (الامة) قطر، العدد ١ ص ١٦
(٢) ديوان نفحات الإيمان ص١١ من قصيدة (في عيد الهجرة النبوية).

وأضرب لذلك مثلا أبيات الشاعر محمد هارون الحلو في وثبة صناديد قريش حول دار النبوة التي يقول فيها[١]:

داروا ببيت المصطفى وحيالهم دون النبيِّ مسالكٌ وشعـــــابُ
واستمكنوا كي يقتلوه وما غفا في البيت إلا الفارس الوثاب
يتنظرون مـــع الصباح غدوه وصباحُ ليل المشركين ضباب
يانائمًا والروحُ تحرس مهدَه وسيوف مكة من فراشك قاب
خفوا اليك يناوشونك بالأذى يابئس ما خفت لـــه الأعراب

هذا مشهد لمؤامرة تدبَّر بليل، والشاعر يرصد تحركها حتى الصباح مشفقًا. المعتدون يطوفون بالبيت مدججين، حتى إذا استمكنوا منه، وسدّوا منافذه باتوا يتنظرون غُدوَّ صاحبه ليُجهزوا عليه. ويقف الشاعر بين الخوف والرجاء، وهو مع ثقته بفشل الغادرين يرى الموقف جدَّ خطير. هاهو ذا الفتى يغفو وسط الدار، وهاهم أُولاء الأشرار تقدموا نحوه، وصارت منه سيوفهم قاب قوسين، إنه خطر داهم لم يبق للشاعر فرصة انتظار المعجزة، مع وثوقه بوقوعها، حتى يصرخ منبهًا وداعيًا:

يا نائمًا... خَفُّوا اليك يناوشونك بالأذى
يـــابئس... مـــــا خفت لـــه الأعراب

ويبرز ((النداء)) عنصرًا مؤثرًا في القصائد التي اعتمدت ((الحوار)) القصصي الذي تفنن شعراء الهجرة في استخدامه بأوجه مختلفة، كقول يوسف زاهر يخاطب غادة حسناء تامَّة الجمال والظرف، ويعني بها الهجرة[٢]:

فيممت شطر الحسنِ أخطب ودَّه وأسرعت إسراع الكريم إلى الضَّيف
وقلت: سلام الله ياأُختَ يوشع[٣] ويا بنت أحلامي ويا ربة الظرف

(١) مجلة الوعي الإسلامي: العدد٢٥ ص ٤٥.
(٢) مجلة الوعي الإسلامي: العدد (٣٧) سنة ١٩٦٨ ص ٦٠.
(٣) أُخت يوشع هي الشمس. وكنّى بها عن الهجرة.

وقول محمد الحسناوي في حوار الخليفة عمر ﷺ وسُراقة [١]

أين أنت الغَداة يابن البوادي يا بشير الفتوح يا ابن الدروب؟
ألفُ لبَّيـــك يـــاخليفـــة طـــه ألفُ لبَّيـــك يـــا أمير القلـــوب
كبـــرِ اللهَ يـــا سراقةُ واخطـــر بسوار ابـــن هرمز[٢] المغلـــوب

فالنداء تكرر في النص الأول ثلاث مرات في بيت واحد ، وفي النص الثاني تكرر ستًا ، ثلاث منها في البيت الأول.

إنّ هذه الظاهرة تسلمنا إلى الكلام على أُسلوب ((التكرار)) الذي هو سمة واضحة في شعر الهجرة يتناسب وقعه مع الغايات التي يريد الشعراء تحقيقها في النفس من التوكيد، واحداث نوع من التعظيم للأمر، كهذا الاستفهام التعجبي الذي جعله محمد الحسناوي على لسان سراقة[٣]:

كيف ينجو محمدٌ من شباك أحكمتهـــا نوابـــغ التنقيب؟
كيف يسري من داره مطمئنًا ويذُرُّ التراب فوق الرقيب؟

وكالمبالغة في السخرية من قريش، والاستخفاف بكيدها بهذا الاستفهام[٤]:

وجمعتـــمْ لقتله كـــلّ جمـــع أيـــــن ولّى ماكنتُم تجمعونا؟
أين من حاصروا الرسول بليل؟ أين فتيان مكةَ الخمسونا؟

وحين سلط الشعراء الضوء على نتائج الهجرة استخدم فريق منهم اسلوب المفاجأة بتكرار ((إذا)) اهتمامًا بإبراز النتائج الباهرة بعد المعاناة والعذاب، وبعد بزوغ شمس الإسلام على بطحاء الجزيرة وعلى المعمورة.

(١) مجلة الوعي الإسلامي: العدد (١٣) سنة ١٩٦٨ ص ٤٠.
(٢) ابن هرمز: يعني به كسرى.
(٣) مجلة الوعي الإسلامي: عدد (١٣) ص ٣٨.
(٤) مجلة الوعي الإسلامي: عدد (١٣) ص ١٠٠.

فالمفاجأة الاولى: يثرب تجيب نداء الحبيب والمسلمون يطيرون إليها أفواجًا تاركين ملاعب صباهم وديارهم، ولم يفلَّ عزمهم التعذيب. يقول محمد الحسناوي على لسان سراقة[١]:

عذَّبوه وما دَرَوا أنَّ جمرًا يتلظّـــى بمجمر التعذيب
فإذا يثرب تجيب صداه وتلبِّي بداميات القلوب
وإذا رهطه يطيرون سرًّا عن رباع الصِّبا ودار الحبيب

والمفاجأة الأُخرى: جزيرة العرب يشرق فيها فجر دين جديد، فتعود رمالها نضرة خضرة، وليلها مشرقًا نديًا...[٢]:

فإذا الفجر بـــاسم بالأماني يرسل الخير والحياة الصفيَّه
وإذا الغيث ممطر فوق نجد بعد جدْب من السنين الخليه
وإذا عابد الحجارة مصغٍ قد تنحّى عن نعرة الجاهليه
وإذا غبرة الأديم رِواء تملأ البيد بالزهور النديَّه
وإذا الليل مشرق بصباح بتعاليم هادم الوثنية

ثم المفاجأة الثالثة: الإسلام يملأ أُذن الدنيا بيانًا وعينها جمالًا، ويصير حديث العالم القريب والبعيد[٣]:

واستدار التأريخ يُملي على الدّ نيا سطور الرسالة الغراء
وإذا تلكمُ الصحاري حديث الفُر س والروم من قريب وناءِ
وإذا تلكم الجزيـــــرةُ يمتدُّ سناها عَبر الذُّرَى والسماء
وإذا خالدٌ وعمرٌو وزيد فلك دائر على الأجواء

(١) من قصيدة (سراقة بن مالك) لمحمد الحسناوي: مجلة الوعي الإسلامي: عدد ١٣ ص ٣٨.
(٢) من قصيدة (هجرة النور والهدى) لصابرة العِزّي، مجلة الرسالة الإسلامية عدد ٢١٩ و٢٢٠ ص ١٢٤.
(٣) من قصيدة (ليلة الهجرة) لمحمد السنوسي، مجلة الفيصل، الرياض عدد ١٣٩ ص ٣٧.

هكذا نقف على أساليب متنوعة للمعنى الواحد توحي بمقدرة الشعراء على تشقيق المعاني، ورسم الصور، واستنباط الدلالات، وعلى البحث في أعماق موضوع الهجرة، غير واقفين عند حدود مناسبتها. وبذلك تحققت في أكثر هذا الشعر عناصر التجربة الشعرية الناجحة، فتجاوزت ((المناسبة))، وبلغت درجة الإبداع والتفوق لتوافر سموِّ الأفكار وحرارة العاطفة، فضلًا عن الخيال والصور الشعرية.

إنَّ ديوان (شعر الهجرة النبوية) سجلٌّ يعلِّم الأجيال مآثر الأبطال، ويمتن عقيدتهم السليمة، كما يعلِّمهم الذوق الرفيع، والإحساس المرهف، والأُسلوب البليغ.

المصـــــادر

- الأُمة (مجلة) قطر العدد: ١ سنة ١٩٨٠م و٤٩ سنة ١٩٨٥م.
- البداية والنهاية، اسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـــ، دار ابن كثير، بيروت (ب. ت).
- ديوان وليد الأعظمي، دار القلم، دمشق (ط٢) ٢٠٠٤م.
- الرسالة الإسلامية (مجلة) بغداد: العدد ٢١٩ – ٢٢٠ سنة ١٩٨٨م.
- السيرة النبوية، أبو محمد عبدالملك ابن هشام ت ٢١٨هـــ، تحقيق مصطفى السقا، وابراهيم الأبياري، وعبدالحفيظ شلبي، مطبعة مصطفَى البابي الحلبي مصر ١٣٥٥هـــ = ١٩٣٦م.
- الشوقيات (ديوان شعر)، أحمد شوقي، بيروت ١٩٨٧م.
- الفيصل (مجلة) الرياض، العدد ١٣٩ سنة ١٩٨٨م.
- نداء الحق (ديوان شعر) محمد أحمد الصديق، الدوحة ١٣٩٧هـــ.
- نفحات الإيمان (ديوان شعر) صابرة العزِّي: بغداد ١٩٧٩م.
- الوعي الإسلامي (مجلة) الكويت، الأعداد: ١ سنة ١٩٦٥ و١٣ سنة ١٩٦٦ و٢٥ سنة ١٩٦٧ و٣٧ سنة ١٩٦٨ و ٤٩ سنة ١٩٦٩ و٢٠٥ سنة ١٩٨٢.